تأملات في الإحسان

لقد تعارف الناس بشكل خاطئ على أن يفهموا الإحسان على أنه في عبادات الطاعات فقط، وليست العبادة بمفهومها الشامل الذي ذكرته الآية الخالدة: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام: 162). ولقد وقفت وتأملت في معنى "الإحسان" في معاجم اللغة، وفي كتاب الله تعالى، وفي السنة المطهرة، فوجدته معنى أوسع وأشمل من مجرد إتقان عبادة الطاعة لله، وفيما يأتي الإشارة إلى بعض تأملات في دلالة كلمة الإحسان.

تأملات في معاجم اللغة

الإحسان مصدر، تقول أحسن يحسن إحسانًا، ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا اتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع.

والإحسان: ضدُّ الإساءة. وأَراد بالإحسان: الإخلاص. وأراد بالإحسان: الإشارة إلى المراقبة وحُسن الطاعة. والحسنة: ضدُّ السيئة. وهو يُحسِن الشيء إحسانًا، أي: يَعلَمه ويُتقِنه. والحُسن: ضدُّ القبح، وحَسَّن الشيء تحسينًا زيَّنه. فأخبرتنا اللغة أن الإحسان أعمُّ كثيرًا مما فهمنا دهرًا من الزمن، وهذا ما نقلته لنا معاجم اللغة كلسان العرب، والقاموس المحيط، ومختار الصحاح، وغيرها.

تأملات في القرآن الكريم

وردت كلمة "حسن" بتصريفاتها خمسًا وثلاثين مرة في القرآن الكريم، معظمها جاءت تحمل معاني خير الجزاء على فعل الإحسان إضافة لمعان أخرى أوسع من مجرد إحسان العبادة لله فقط، إلى آفاق أرحب من الأخلاقيات والسلوكيات الحياتية، وهذه بعض منها دون حصر:

– قال الله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} (آل عمران: 134).

قال ابن إسحاق: "أي وذلك الإحسان، وأنا أحب من عمل به".

وقال الحافظ ابن كثير: "(والكاظمين الغيظ) أي لا يعملون غضبهم في الناس بل يكفون عنهم شرهم ويحتسبون ذلك عند الله عز وجل، ثم قال تعالى: (والعافين عن الناس) أي مع كف الشر يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم، فلا يبقى في أنفسهم موجدة على أحد، وهذا أكمل الأحوال، ولهذا قال: (والله يحب المحسنين) فهذا من مقامات الإحسان".

– يقول تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} (القصص: 77).

اعتبر الله تعالى أن الفساد في الأرض أيا كان نوعه مستجلب لكره الله وسخطه. كما اعتبر أن الإحسان في مناحي الحياة هو امتداد عبر إحسان الله للإنسان على أنه أصل كل أمر.

– ويقول الله تعالى: {مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} (التوبة: 120).

فتقديم رسول الله ﷺ على النفس، وعدم التخلف عنه ﷺ وعن أوامره كلها، والصبر على ما يلاقيه المسلم في سبيل الله تعالى، كل هذا أعطاه وصف "المحسن" عند الله تعالى.

– وقال تعالى: {قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخًا كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} (يوسف: 87).

قال الإمام القرطبي: "فإحسانه أي: العزيز، أنه كان يعود المرضى ويداويهم، ويعزي الحزاني".

– ويقول تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: 90).

قال الإمام القرطبي: "إنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك والسنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك".

وقال ابن عطية: "العدل هو كل مفروض، من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حد الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان".

وقال الإمام الطبري: "وإن معنى الإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته".

وقال الإمام البخاري: "(الإحسان) ومنه: ترك معاقبة المسيء على إساءته والعفو عنه".

فهذه المعاني كلها تثبت سعة معنى "الإحسان" وشموله عن المعنى القاصر الذي يفهمه معظم المسلمين.

تأملات في السنة المطهرة

– ورد الإحسان في حديث جبريل عليه السلام الشهير: (قال: ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) متفقٌ عليه.

قال الإمام النووي شارحًا الحديث: "المراد بالعبادة الطاعة مطلقًا، فيدخل فيه جميع الوظائف والأعمال.

وذكر ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: "أراد بالإحسان الإشارةَ إلى المراقبة وحُسْن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله"، أي عمل كان.

وقال الإمام المناوي في معنى: (كأنك تراه): "بأن تتأدب في عبادته كأنك تنظر إليه، فجمع بيان المراقبة في كل حال، والإخلاص في سائر الأعمال، والحث عليهما".

وقال الإمام القاري في معنى: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك): "أي فاعلم أنه يراك في جميع الأحوال، فيجب عليك أن تحسن الأعمال".

– وقد وردت للحديث رواية في مسند أبي حنيفة رحمه الله تقول: (قال: الإحسان أن تعمل لله).

وفي رواية للحديث عند الإمام مسلم: (أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تكن تراه فإنه يراك).

– قال ﷺ: (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته) رواه مسلم وأصحاب السنن.

قال الإمام الآبادي في "عون المعبود": "(كتب الإحسان على كل شيء): أي أمركم به في كل شيء".

وقال الإمام السندي: "(إن الله كتب الإحسان على كل شيء)، أي أوجب عليكم الإحسان في كل شيء".

– قال ﷺ: (في كلِّ كبدٍ رطبةٍ أجر) متفقٌ عليه.

قال الإمام المناوي: "نبه بالسقي على جميع وجوه الإحسان من الإطعام، قال القرطبي: وفيه أن الإحسان إلى الحيوان مما يغفر الذنوب، وتعظم به الأجور"!!

الإحسان ثلاثة

لقد وجدت في لغتنا العربية وفي شريعتنا الغراء الإحسان على ثلاثة معان:

1- إحسان العمل وإتقانه وإصلاحه، أي عمل، سواء العمل العبادي أو المعاملاتي أو أي عملٍ كان.

– قال الله تعالى: {بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة: 112).

– قال الله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} (النساء: 125).

2- الإحسان إلى الناس، كالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين والمسلمين وسائر الخلق أجمعين.

– قال الله تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ} (البقرة: 83).

– قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} (النحل: 90).

3- الإحسان إلى الكون من حولنا؛ الحيوان، النبات، الأرض، الماء... إلخ.

– قال الله تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} (الأعراف: 56).

– (إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته) رواه مسلم وأصحاب السنن.

الإحسان غاية رتب الدين

إن الإحسان الحق ليس إحسان صلاة وصيام فقط، بل هو منهج حياة وأسلوب معيشة، هو عبادة ومعاملة، هو صلاة وحسن خلق، هو طاعة وأداء الحقوق إلى أهلها.

إنه إن أخذنا أي شيء في حياتنا بجدٍّ وصدق؛ مع ربنا سبحانه، في أنفسنا، في أعمالنا، في بيوتنا، في تربيتنا لأبنائنا، في تعاملنا مع من حولنا، في التزامنا بوعودنا ومواعيدنا، وطريقة تفكيرنا ، وفي كل شيء.

وأخيرًا يقول الإمام القرطبي في شرح قول الله تعالى: {مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (التوبة: 91): "هذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن"، فـ"إن الإحسان غاية رتب الدين وأعظم أخلاق عباد الله الصالحين!!" كما يقول الإمام المناوي.

***الدكتور كمال المصري**